وقفة مع الآية (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

يقول الحق سبحانه: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } طه -130.

الرضى غاية كل إنسان، فكل يغدو بحثا عن السعادة والرضى، ويسلك الناس في ذلك سبلا شتى، وهذه الآية تبين لنا أقصر طريق وأيسره لتحصيل تلك الغاية " لعلك ترضى.

فلماذا التسبيح؟ وما المقصود به هنا؟ وما سر الإتيان به في هذه الأوقات؟ وما مناسبة الإطلاق في آناء الليل؟ والتقييد بأطراف النهار؟ وهل يختلف معنى الآية بسبب القراءة الثانية في كلمة ترضى؟

وقفة بل وقفات حول هذه الآية الكريمة من كتاب الله.

اختلاف القراءات في الآية

اختلفت القراءة في كلمة "ترضى" فقد قرئت بفتح التاء كما قرئت بضمها: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، متفقتا المعنى، غير مختلفتين، إذ المآل فيهما واحد، لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه وإذا رضيه فقد أرضاه كما يقول ابن جرير الطبري.

وقيل قراءة ضم التاء تفيد معنى لا تفيده القراءة بالفتح وهو أن "تُرضى" بالضم تفيد أن تكون مرضيا عند الله. كقوله تعالى وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [مريم: 55].

ما المراد بالتسبيح هنا؟

قيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة، وقيل: هو على ظاهره، فلا يبعد حمله على التنزيه والإجلال، والمعنى: اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات، وهذا القول أقرب إلى الظاهر كما يقول أبو عبد الله الرازي؛ لأنه تعالى: صبّره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات.

وقال محمد رشيد رضا: والأظهر في أمثال هذه الآيات أن ذكر الله – تعالى – وتسبيحه المطلق فيها عام، فيدخل فيه الصلاة وغيرها.

إن أردت رضوان الله فسبح لقوله تعالى: "وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى" [طه: 130].

وإن أردت الخلاص من النار فسبح لقوله تعالى: "سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [آل عمران: 191].

وإن أردت الفرج وكشف الغم فسبح؛ لقوله تعالى عن يونس: " فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ" [الأنبياء: 87-88].

لماذا التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار؟

يقول القشيري في لطائفه: "قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ: أي في صدر النهار ليبارك لك في نهارك، وينعم صباحك.

«وَقَبْلَ غُرُوبِها: أي عند نقصان النهار ليطيب ليلك، وينعم رواحك. وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ: أي في ساعات الليل فإن كمال الصفوة في ذكر الله في حال الخلوة.

«وَأَطْرافَ النَّهارِ» أي استدم ذكر الله في جميع أحوالك."

ويذكر الزمخشري نكتة هنا: وهي أن أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب. وقال الله عز وجل:" إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا"، وقال: " أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً"

ولأنّ الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله. ... أى: اذكر الله في هذه الأوقات، طمعا ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك.

وفي هذا التطواف في كتب التفسير للغوص في معنى هذه الآية وما يستفاد منها أدّتْني خاتمةُ المطافِ. وهدَتْني فاتِحةُ الألْطافِ إلى تفسير الشيخ الشعراوي رحمه الله حول هذه الآية فذكر هنا مالم يسبق إليه ولا يمكن الاستغناء عن إيراده بعبارته هو مع تصرف يسير إذ يقول: " أي: سبح تسبيحاً دائماً مُتوالياً، كما أنّ نعمَ الله عليك متوالية لا تنتهي، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة، النوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، الأكل نعمة، والشرب نعمة، البصر والسمع، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم.

خُذْ مثلاً حركة اليد التي تبطش بها، وتأمّل كم هي مرِنة مِطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله في حركة يده، إلا إذا أصابها شلل

لذلك؛ فالحق سبحانه وتعالى يعطينا زمن التسبيح، فنعيشه في كل الوقت {قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار} [طه: 130] .

... **يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة:**

"**اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك**" فهذا الذي يستحق المراقبة، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة، فلا تُكنْ مراقبته لمن يغفل عنه، أو ينصرف، أو ينام عنه.

"**واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك**" فإذا شربتَ كوب ماءٍ فقُلْ: الحمد لله أن أرواك، فساعةَ تشعر بنشاطها في نفسك قل: الحمد لله. وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل: الحمد لله، وهكذا تكون موالاة حمد الله، والمداومة على شُكْره.

"**واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه**" فطالما أنك لا تستغني عنه، فهو الأَوْلَى بطاعتك.

"**واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه**" وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب؟

ما سر الإطلاق في آناء الليل والتقييد بأطراف النهار؟

لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل، فقال {آنَآءِ الليل} [طه: 130] وحدده في النهار فقال {وَأَطْرَافَ النهار} [طه: 130] ؟ قالوا: لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْي، فربما شغلك التسبيح عن عملك، وربنا يأمرنا أن نضرب في الأرض ونُسهِم في حركة الحياة، والعمل يُعين على التسبيح، ويُعين على الطاعة، ويُعينك أنْ تلبي نداء: الله أكبر...

أمّا في الليل فأنت مستريح، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله في أيِّ وقت من أوقاته.

...ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح، فيقول {لَعَلَّكَ ترضى} [طه: 130] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية، فلم يقُل: لعلِّي أرضى، قال: لعلك أنت ترضى، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك.

والرضا: أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمِّل، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد، وحقّق ما يرجو، كما تقول لصاحبك: أأنت سعيد الآن؟ يقول: يعني: يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك: سعيد والحمد لله.

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول: ربنا يُديم عمرك، جزاك الله خيراً.

إذن: رضا الإنسان له مراحل؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي كما روى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله يتجلى على خَلْقه في الجنة: يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين، قال: أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وهل يوجد أفضل من ذلك؟ قال: نعم، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً».

وهكذا يكون الرضى في أعلى مستوياته. الغاية من التسبيح إذن الذي كلّفك ربك به أنْ ترضى أنت، وأن يعودَ عليك بالنفع، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق، أنت مُسبّح قبل أن يخلق الكون كله، ولا يزيد تسبيح في ملكه تعالى شيئاً. ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِي الله فيرضيك".

1. جامع البيان لمحمد ابن جرير الطبري (18/401)

2. بحر العلوم للسمرقندي (2/416)

3. لطائف الإشارات للقشيري (2/487)

4. الكشاف للزمخشري (3/96)

5. التفسير الكبير للرازي (2/394)

6. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (12/154)

7. تفسير الشعراوي (15/9451)